تاريخ استقبال المقال: 2015/10/07 تاريخ قبول نشر المقال: 2016/01/11 تاريخ نشر المقال:2016/03/01

دور الصوفية في الاستراتيجية الدينية الجديدة للمملكة المغربية

د. أنس الصنهاجي
جامعة- ظهر المهراز- فاس

ملخص

شكل تنامي قوة الإسلام السياسي في المغرب، واستطار أفكاره بين مختلف فئات المجتمع وخاصة الفقيرة منها، قلقا لدى المؤسسة الملكية وهاجسا في نظامها، الأمر الذي جعلها تبحث في إعادة توظيف الإسلام الصوفي، في إطار سياسة دينية جديدة تعيد التوازن للحقل الديني والسياسي، بما يضمن تعزيز مبدأي الشرعية والمشروعية اللذين يتأسس عليهما النظام السياسي المغربي، ويقوي من سيطرة إمارة المؤمنين على السلطتين الدينية والزمنية، ويخبي حضور التيارات الإسلامية المنتفضة ضد أمير المؤمنين وسياساته العمومية.

الكلمات المفتاحية: المفهوم الأول: التصوف السياسي. المفهوم الثاني، السياسة الدينية. المفهوم الثالث: المخزن المغربي.

The role of Sophism in a new political religion of Morocco

Abstract :

The growing strength of political Islam in Morocco and its adoption by the various segments of society, especially the poor ones, becomes a real concern and an obsession for the Royal Institution. Such fact makes the Royal institution looks at the re-employment of Sufi Islam, in the framework of a new religious policy that aims to establish a sort of balance between the religious and the political field as well as to ensure the promotion of the principles of legality and legitimacy ; the core of the Moroccan political system. In addition, such new religious policy strengthens the control of the king over the religious and the symbolic authorities and at the same time pushes away all Islamic movements that are against the public policies of the king.

Keywords: first concept: Political sophism. second concept: Political religion. the third concept: Makhsan of morocco.

مقدمة

تكتنز الزوايا والطرق الصوفية بمختلف تياراتها، تاريخا طويلا داخل المجتمع المغربي، كمؤسسات دينية شعبية تحظى بالإجلال والتقديس، وقد ساعد على تكليس هذه المكانة وتعميقها في البنية السوسيو ثقافية للمجتمع، انخراطها كفاعل في سلسلة من الأحداث والوقائع السياسية والاجتماعية التي سادت البلاد، في مختلف المراحل التاريخية التي شهدها المغرب الحديث، وما أدته من أدوار مركزية في الدب عن حوزة الوطن ونشر القيم الدينية في مختلف ربوعه. فمنذ العصر المريني والزوايا تشكل مكونا مؤثرا على الساحتين السياسية والاجتماعية، وقوة مادية ورمزية أهلتها لتبوء مقاما مشرفا في نفوس العوام ورفعة في سدرة الحكام، لدرجة أن منهم من انتسب إلى بعض الزوايا المؤثرة ، كما هو الحال مع الملوك السعديين الذين انتموا إلى الطريقة الجزولية، والعلويين الذي انتسب منهم السلطان المولى عبد الرحمان إلى الطريقة الدرقاوية[1]، فأدوارهم الجهادية ضد المحتل ونشرهم للأمن والغداء والتعليم والتطبيب... في المناطق التي استطانوا بها، وما نسج من الحكايات حول كرامات شيوخهم(الأولياء) وخوارقهم الميثية المستمدة من معارفهم بالأسرار الإلهية التي اختصوا بها[2]، جعلت عرى الارتباط بالزاوية وبطريقة شيخها تتجدر وشائجها باعتبارها المنهج الكفيل والسّمت القويم لدرء الشرور والملمات وجلب الخيرات وتحقيق المرجوات ومحو الذنوب والموبقات...

ورغم أن التاريخ المغربي يحبل بالأحداث التي قاربت الصراع المحموم الذي جمع الزوايا بالسلطة القائمة بمراحلة وحيثياته منذ انهيار الحكم المريني، فان المخزن استطاع في الأخير احتواءها وتطويعها بما يخدم استقراره ويعزز سلطانه ويذلل هيمنة واستبداد السلطان الشريف بالحكم، ويقوي من شرعية سياسته في الرعية، وذلك عن طريق بذل الهبات والعطايا والإقطاعات، وإصدار ظهائر التوقير والاحترام والإعفاء من الضرائب والتكاليف[3]. فمهمة الطرق الصوفية التي تم مخزنتها في مختلف المراحل التاريخية تمثلت في حض الرعية على موالاة السلطان الشريف والامتثال لأوامره واجتناب نواهيه[4]، وعيا منها أن حضورها في المجتمع في ظل سلطة متمكنة رهين بالمشروعية التي يسحبها السلطان على طريقتها، وأن بزوغها أو أفولها مرتبط برضاه أو حنقه[5].

وقد ظلت السلطة الشريفة عبر تاريخها الطويل تنهج لعبة التوازن بين الصوفي والسلفي[6]، فحين يمرق أحدهما عن إرادة السلطان، ينتصر للخاضع ويقوي حضوره ونفوذه، ويخرج الآخر عن جادة الشرع، وينزع عنه رداء الإسلام ويروج لضلاله وفسوقه.

وقد شغلت مسألة التصوف الطرقي بعيد أحداث السادس عشر من ماي سنة 2003 الإرهابية، مكانة معتبرة في مشروع السياسة الدينية الجديدة، معتقدا أن الفاعل الصوفي يمكنه أن يقدم نموذجا للتدين ينسجم مع التوجهات الإيديولوجية للسلطة، والأمثل لمواجهة الفكر الأصولي ومحاصرة روافده المغذية للمنطق الجهادي، وذلك من خلال تزكية مبادئه وتعميق أثره في نسيج المجتمع، وتقديمه نموذجا للإسلام الحداثي، وقد جاءت هذه الإستراتيجية منسجمة مع التوصيات التي أقرتها العديد من الدراسات والتقارير السياسية والأكاديمية الدولية، التي اعتبرت الفكر صوفي حلا ناجعا من بين الحلول الأخرى التي من المعقول أن تأسس لتعايش سلمي دائم بين الشعوب، لما يتسم به تراثه من تنوع وانفتاح وتسامح مع الآخر ونبذ للأطروحات المتطرفة.

وعلى هذا الأساس ماانفك التصوف السني الجنيدي من مسلمات الخطاب الديني الرسمي وعماد السياسة الدينية الجديدة وأحد مكونات الهوية والخصوصية الدينية المغربية، إلى جانب المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية، فإقراره محددا رئيسا في إعادة هيكلة الحقل الديني، جاء إثر تنصيب أحمد التوفيق –المنتسب للزاوية البوتشيشية– وزيرا للأوقاف والشؤون الإسلامية، وقد فتح هذا التوجه الرسمي الأبواب على مصراعيها لحضور التصوف الطرقي في

المشهد العمومي والوسائط الإعلامية المختلفة، عبر توسيع نطق اشتغالاته وأنشطته، التي لم يقتصر اهتمامها على البحث الأكاديمي والمجال الدبلوماسي (الدبلوماسية الروحية) بل طال حتى المجال الثقافي والفني.

فما هي الأحداث والمستجدات الوطنية والدولية التي فرض سياقها على المغرب تجنيد الصوفية لمواجهة التيارات الإسلامية المعادية لإمارة المؤمنين وحلفائها الغربيين؟ وعلى أي أسس وغايات تم بعث التصوف السياسي من رماده لضبط التوازنات الدينية والسياسية للملكة المغربية؟.

I-<u>الصوفية في إستراتيجية علمنة الإسلام ومحاصرة التيار الجهادي</u>

باتت الجماعات الإسلامية المتبنية للجهاد فكرا وممارسة، تشكل خطراً يشوش على المصالح الغربية ويهدد استقرار مجتمعاتها، فما كان على القوى الغربية بعد أن تكشف قصور الحل العسكري في اجتثاث شأفة عنفها – المرتكب باسم الدين– النقب عن حلول ناجعة تعتمد على المواجهة الفكرية في صراعها مع الإرهاب، وفي هذا الشأن أعدت مؤسسة راند سنتي 2004 و2007[7] تقارير مفصلة رسمت فيها منحنيات الإستراتيجية التي يحسن التعامل بها مع العالم الإسلامي بأطيافه الفكرية والدينية،(أصوليين، تقليديين، حداثيين، علمانيين) والأدوار التي عليه أن يؤديها كل فاعل على حدة للقضاء على الإسلام الجهادي وعلمنة الحياة العامة بكل المجتمعات الإسلامية[8]، وكان مفاجئاً أن تتكرر التوصية نفسها في عز "الربيع العربي"، ولكن هذه المرة من معهد "هرتسليا" الإسرائيلي، الذي أوصى الغرب في دراسته بدعم الطرق الصوفية في العالم العربي لتحجيم "الإسلام السياسي[9].

وقد بدأ مسلسل التوصيات ببعث الصوفية وتوظيفها إستراتيجيا كآلية من آليات التحكم في مجريات الحراك السياسي الأصولي، مع المؤتمر الذي عقده مركز نيكسون بواشنطن في الرابع والعشرين من أكتوبر سنة 2003، تحت عنوان: "**فهم الصوفية ودورها المحتمل في سياسة الولايات المتحدة**".حيث تم فيه التعريف بالصوفية ومبادئها لصناع القرار بالولايات المتحدة الأمريكية، وأفق الدور الذي يمكن أن تؤديه إجرائيا في مقاومة الفكر الوهابي، وأفل إشعاعه خدمة للأمن والسلم الدوليين. ومن بين أبرز المداخلات التي شدت الاهتمام إلي مضمونها مداخلة "هدية ميرا " التي دارت فكرتها حول الخطورة التي يشكلها المشروع الوهابي على السلم والتعايش الدوليين، وذلك من خلال إيديولوجيته التي يهفو من بثها إلى رص مسلمي العالم –بعد تحويلهم إلى سلفيين– في قوة سياسية موحدة ضد أوروبا والولايات المتَّحدة[10].

واقترحت في الأخير ثلاث طرق بإمكانها نقض المشروع الوهابي من خلال تقوية النفوذ الصوفي في العالم عبر المنوال التالي:

أولًا: الحفاظ على أو إعادة بناء أضرحة الأولياء ومراكزهم التعليمية المرتبطة بهم، واستعمالها في إعادة تأهيل الشَباب الذين تحرروا من عدوانية الفكر الوهابي.

ثانيًا :إعادة تذكير الناس بأماكن الأولياء وأهميتها في ربط جسور التسامح والتعايش.

ثالثًا :اهتمام الولايات المتحدة بإنشاء وتمويل مراكز تعليمية تركز على التاريخ القديم والحضارات المتعاقبة على الإقليم، مع إبراز أسبقية وجود التسامح الديني والإثني بوجه خاص، مع العناية بالمخطوطات القديمة للصوفية والعمل على ترجمتها[11].

في حين ركزت مداخلة "ألان جودلاس" ، على مكانة الطريقة الصوفية النقشبندية في مجتمعات آسيا الصغرى كمكون رئيس للهوية الوطنية لهذه المجتمعات، واقترح من هذا المنطلق ضرورة الضغط على كل الدول إسلامية لإحياء تراثها الصوفي ودمجه في الهوية الوطنية وذلك من خلال:

- ✓ نشر أعمال حول الصوفيين المحليين باللغات الحية وترجمات للنصوص الصوفية

- ✓ التعريف بالقِيَم الصُّوفية واعتبارها مكون من مكونات قِيَم المجتمع المدني في المؤسسات التعليميَّة.
- ✓ التأكيد على أهمية بعث وإشاعة الطريقة نقشبندية والانفتاح عليها في صيانة مجتمعات آسيا الوسطى من التطرف والردكالية الوهابية.
- ✓ إحياء الثقافة والأدب الصوفيين تحديدًا، وكل ما يتصل بتقاليد زيارة المقامات والأضرحة[12].

فالمراهنة إذن على الطرق الصوفية جاء على اعتباره الوجه المسالم للإسلام الصوفي الذي يحترم كل الأديان سماوية كانت أو وثنية، ومبادئه الداعية إلى اعتزال الأمور الدنيوية وفصل الدين عن السياسة، والانكباب على تهذيب النفس والعناية بالقلب والروح، والاشتغال على المعاني والقيم الروحية ، أي إسلام تقليدي بنفس حداثي يستطيع استيعاب قيم الحداثة والديمقراطية ومبادئ العلمانية والانضباط للمعايير والقوانين المتعارَف عليها دوليًّا، ويتناقض تماما مع المنهج الجهادي كأسلوب لفرض الذات. وانسجامًا مع اختزال "بوش" للصراع بين الغرب والإسلام الأصولي إما معنا أو علينا، فقد غدا الميل الغربي للصوفية ليس مجرد انحياز، وإنما تحالف استراتيجي ضد الوهابية الذي باتت مرادفا للإرهاب الإسلامي، لدرجة أن الولايات المتحدة توعدت على لسان رئيس منتدى الشرق الأوسط –من باب الدفاع عن حقوق الإنسان– بالتدخل العسكري إذا ثبت لديها اضطهاد فكر أو مشايخ أحد الطرق الصوفية[13].

وفي هذا الصدد نشرت مجلة" يو إس نيوز" الأمريكية بتاريخ 17 أبريل 2005 تقريرًا بعنوان:" قلوب وعقول ودولارات" بقلم "ديفيد" كابلان" قال فيه: يعتقد الإستراتيجيون الأمريكيون جازمين أن الحركة الصوفية بفروعها العالمية يمكن أن تنجح في تقزيم الإسلام الجهادي وتنكيص التنظيمات الإسلامية المتطرفة، فالصوفية بتفسيرها الباطني للإسلام تمثل توجهًا مناقضًا للتيارات الأصولية الوهابية[14]، وهذا ما دفع الولايات المتحدة إلى تعزيز العلاقات مع التيار الصوفي في العالم وتقديم ملايين الدولارات لزعماء الصوفية كمعونة لمنافسة الوهابية و نشر الفكر الصوفي[15].

وفي تقرير أصدرته الباحثة" شيريل بينراد" وآخرون بعنوان العالم الإسلامي بعد 9 / 11 / أكدت أن الصوفيين هم الأقدر على التغيير في العالم الإسلامي وكبت الفكر الجهادي، فتعظيمهم لمراقد القدسيين (شيوخ الطرق الصوفية وأولياء الله الصالحين) وجعل أضرحتها مساجد لصلواتهم، وتمسكهم بالتقاليدهم المحلية، طهرت سرائرهم من ضغائن التطرف والسلوك العدواني التي يتصف به الوهابيون...، كما أنهم لا يرون تنافرا بين معتقداتهم الدينية وعلمانية الدول التي ينتمون إليها... وبما أن الصوفية هي العدو اللدود للوهابية، فهي بالضرورة حليف بديهي للغرب في حربها ضد التطرف والأصولية[16]. وعطفا على ما تقدم، أعربت "فارينا علم" وهي من المنتسبات لإحدى الطرق الصوفية في الغرب بالقول: "من الممكن أن تصبح الصوفية اليوم بتركيزها على القيم الإسلامية المشتركة قوة كبيرة ضد الإسلام الجهادي"[17].

وبناء على ذلك أوكلت "ترويكا" المناهضة للفكر الوهابي للكثير من المنظمات والهيئات في البلدان الغربية والحليفة العمل على تحويل التدين عند المسلمين إلى تدين على النحو الصوفي، وحمل الأنظمة في الدول الإسلامية ودعمها ماديا وسياسيا لبعث التدين الشعبي وإحيائه من جديد وتعزيز وجوده بين مختلف طبقات وأطياف المجتمع[18]، ففي أواخر عام 2009 مثلا احتضنت المملكة المتحدة بإشراف الوزارة الخارجية على إنشاء المجلس الصوفي العالمي في لندن، وأصدر المجلس بيانًا ذكر فيه بأنه منظمة إسلامية مستقلة تروم نشر الوعي الديني الإسلامي الصحيح، وإفشاء ثقافة السلم والسلام في جميع ربوع العالم، والانبراء لكل أشكال التطرف والتعصب الديني، وجسر الهوة بين مختلف الأديان ، واحترام معتقدات كل الشعوب والتزام الحياد في المعتركات السياسية.

أما في الولايات المتحدة فقد تابعت حكومتها بارتياح استطار المراكز الصُّوفية في مختلف الولايات خاصة تلك التي ترتبط باسم جلال الدين الرومي (الطريقة المولوية)، ففي مدينة دالاس مثلا ظهر ما ينيف عن ثلاثين مركزا صوفيا خلال سنة 2013، ما اعتبره علي أمين زاده زعيم إحدى الطوائف الصوفية في تكساس، أن العديد من الأمريكيين باتوا يستجيبون لرسالة الإسلام الصوفي التي تدور حول الحبِّ والصداقة والتفاهم[19].

وعلى الصعيد الإجرائي وظفت الولايات المتحدة وحلفاؤها المال والإعلام لنشر الفكر الصوفي والتجريس بنقيضه الوهابي، فما زالت تنفق بنهم على الأقلام والسياسات المعادية للوهابية على وجه الخصوص، بعد أن وجهت الإعلام في الدول الإسلامية الموالية توجيها شبه كاملة خدمة للمشروع[20]، وفي هذا الشأن أنفقت الإدارة الأمريكية مثلا ما يربو عن سبعمائة مليون دولار على قناة الحرة وإذاعة سوا، كما خلقت قنوات فضائية كاملة لنشر الفكر الصوفي، وأظهرت مشايخهم في مختلف الوسائط الإعلامية وهم يتحدثون عن الفن والسينما والموسيقى وغيرها[21] ويشجعون أهلهم وروادهم ، كما صارت أغلب الأعمال الدرامية العربية الأخيرة– خاصة المصرية والمغربية منها– تبرز المتصوفة في مشهد أقرب إلى المثاليه في ممارسة الشعائر الإسلامية والتفاعلات الاجتماعية، في الوقت الذي يتم تسفيه أفعال وأفكار باقي التيارات الإسلامية والتشهير بها ووسمها بالتخلف والهمجية والظلامية.

وبموازاة ذلك حثت الولايات المتحدة الحكومات في الدول الإسلامية، على تعيين أئمة وخطباء مساجد وتخصيص مناصب وزارية للمتعاطفين مع الصُّوفية، هذا علاوة على تمويل محطات إذاعة إسلامية، وبرامج تلفزيونية و دورات تعليمية في المدارس البحثية ، وورش العمل السياسية المروجة للإسلام المعتدل في أكثر من أربع وعشرين دولة إسلامية، ناهيك عن تقديم هبات في إطار المساعدات، مخصصة لترميم المساجد والمآثر العمرانية، وتدريب الأئمة وإنشاء المدارس الإسلامية، وتغطية مصاريف البعثات العلمية ورسائل الدكتوراه المهتمة بالدفاع عن الفكر الصوفي ورجالاته.

فالغرب إذن يتوخى من هذه السياسة نشر التصوف الإسلامي والتمكين له على حساب الإسلام المعادي للسامية والغرب، لشغر الساحة الدينية والسياسية وفق ضوابط فسق الدين عن الحياة، وتحييده نهائيًّا عن قضايا السياسة والاقتصاد ،على الغرار التي أقصيت فيه المسيحية في أوروبا والولايات المتحدة وباقي الدول المسيحية[22].

حاصل القول، وجد الغرب في الصوفية بديلا ثقافيا وتدينا اجتماعيا، يمكن محالفته وتجنيده لشن حرب فكرية بالوكالة عن الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها، ونسف كل أشكال التدين الأصولي المعشش في العالم الإسلامي، وجاء هذا الاختيار تأسيسا على تقارير و توصيات أصدرتها مراكز ومعاهد دولية مشهود تأثيرها في صناعة القرار العالمي، إذ أكدت غير ما مرة مناسبة هذا النوع من التدين في تطويع الشعوب الإسلامية للإرادة الغربية وإرساء الأمن الدولي، وقدرته على إحلال مصالحة سرمدية بين المسلمين وأصحاب الديات الأخرى وتحويل الصراع من اختلاف إلى إتلاف.

II–الصوفية في السياسة الدينية الجديدة للمملكة: الأدوار والوظائف

بعد الدعم الذي قدمته الزوايا الطرقية للاستعمار الفرنسي في صراعها مع القصر والحركة الوطنية، وإسهامها في خلع السلطان محمد بن يوسف وتنصيب ابن عمه (ابن عرفة) عوضا عنه، فرضت الدولة المغربية على الزوايا عقب الاستقلال الانكفاء على مجالها الديني والانشغال به[23]، وفي هذا السياق رفضت الدولة ترشح مريدين باسم طرق صوفية معروفة، مثل رفض ترشح أتباع محسوبين على الطريقة الكتانية في انتخابات 1984، ومتقدمون للترشح باسم الطريقة الريسونية في استحقاقات 1997[24]، لكن مع مستهل حكم الملك محمد السادس، عاد الاهتمام بهذه المؤسسة التي رنت الدولة من بعث أدوارها من جديد ضبط المجال الديني والسياسي، وتعزيز الهيمنة الدينية

والسياسة لإمارة المؤمنين[25]، وذلك عبر إغداقها بالرعاية المادية والرمزية وتغطية نفقات أنشطتها الثقافية والعلمية والفنية، والترويج لنموذجها وتلميعه إعلاميا. فتوظيف الورقة الصوفية جاء في سياق ضمان التحكم في مفاصل الخريطة الدينية وصيانة خيارات البلاد المذهبية، وملء الساحة الروحية ومزاحمتها للتيارات الإسلامية الآبقة والموفقة في اجتذاب الكثير من قاطني الأحياء المهمشة والفئات المقصية اجتماعيا. فما تمظهرات عودة الطرقية للممارسة السياسية؟ وما هي الأدوار التي حددت لأدائها؟

1- <u>العودة السياسية للطرق الصوفية: السياق وتجلياتها</u>

مثل استوزار أحمد توفيق على رأس وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية في السابع من نونبر سنة2002، مؤشرا واضحا في اتجاه عودة المراهنة على التصوف الطرقي، وتنصيبه للدفاع عن خيارات السلطة السياسية وإضعاف التيارات الإسلامية الشاردة عن خط السلطة السائدة، فطبيعة الثقافة التي حرصت الزوايا على نشرها بين مريديها، والقائمة أساسا على خضوع المريد للشيخ دون تفكير أو استفسار هي التي جعلت الدولة تعمد اليوم إلى إدماج مريدي الزوايا في دواليب الحكم، وهذا ما اتضح بشكل جلي منذ انطلاق عملية إعادة هيكلة الحقل الديني، هذا الدور القديم/الجديد للصوفية في خدمة المخزن هو الذي يفسر تهجم الزاوية الريسونية على جماعة العدل والإحسان على خلفية مذكرة "إلى من يهمه الأمر" التي وجهها عبد السلام ياسين إلى الملك محمد السادس سنة 1999، متهمة الجماعة بالنفاق ونكث العهد والميثاق، واستغلال الدين لتحقيق مآرب سياسية، وخوضها في أمور تتناف ومبادئ الدين الإسلامي الحنيف. والموقف نفسه عبرت عنه الزاوية البودشيشية في شخص شيخها حمزة بن العباس سنة 2005، الذي أصدر بيانا شجب فيه بشدة فحوى المذكرة، ودعا بالمقابل إلى الالتفاف حول أمير المؤمنين باعتباره رمز الأمة وسيادتها الذي جعله الله سببا في توحيد كل مكونات الشعب المغربي[26]. كما لم يتوان عن إدانة تصريحات نادية ياسين نجلة مؤسس جماعة العدل والإحسان التي انتقدت الأوضاع في المغرب، وصدعت بتفضيلها للنظام الجمهوري، وقد أعرب حيال ذلك عن استيائه من مواقفها المعادية، وأفعال الذين يقفون ضد الملكية، التي اعتبرها محددا حاسما لضمان وحدة المغرب والتنعم في مرافل الأمن والاستقرار[27].

ولعل من المشاهد التي توضح بالملموس الدور التي طفقت تلعبه هذه الطريقة في المجال السياسي، نزولها بجمع غفير ناهز الثمانين ألف مشارك في مظاهرة حاشدة يوم السادس والعشرين من يونيو سنة 2011 بالدار البيضاء، تحت شعار الطريقة القادرية البودشيشية تدعو عموم الشعب المغربي إلى التصويت بنعم على الدستور، وقد جاءت هذه المظاهرة كرد على جماعة العدل والإحسان وحركة 20 فبراير اللتين تعارض الدستور وتعتبره ممنوحا وغير ديمقراطي. وقد شكل هذا الخروج العلني في نظر الكثير من المتتبعين تحولا نوعيا في تعاطي الطريقة مع الشأن العام[28]، وهو ما أكدته الدعوة التي أطلقها مؤخرا عدد من الشباب الصوفي لتأسيس رابطة وطنية تحت اسم : "الرابطة الوطنية لشباب الشرفاء والزوايا الصوفية"، وهي الدعوة التي قوبلت بالتشكيك من قبل العديد من الفاعلين السياسيين والمتتبعين للشأن الصوفي والديني عموما، حول متطلبات الدعوة وتوقيتها والدواعي والخلفيات التي تحكمت فيها، بيد أن أغلب المحللين رأى فيها حلقة رصينة ضمن إستراتيجية إعادة هيكلة الحقل الديني، ودعوة مسيّسة تقف خلفها أجهزة رسمية خدمة لجهات وطنية ودولية توظف التصوف لمحاربة المد السلفي وحركات الإسلام السياسي المعارض، ونزوع يستجيب لتوصيات مؤسسة راند الأمريكية، الداعية إلى خلق أقطاب وتكتلات صوفية[29].

وعلى صعيد آخر جدّت الزاوية بعد تأسيس شبيبة تابعة لها، في التسرب إلى فضاءات ومؤسسات ظلت عمقا إستراتيجيا لفعاليات سياسية لها وزنها وتاريخها النضالي، من قبيل تشجيعها على تكوين فصائل طلابية تنشط

باسمها في مختلف الجامعات المغربية، وقد نجحت بالفعل في تشكيل فصيل لها بكليات مراكش، كما بثت مريديها في مختلف الأحزاب السياسية دون مراعاة لانتماءاتها الإيديولوجية، ولها حضور مكثف في مجموعة من الأنشطة الثقافية والإشعاعية، وحريصة على عقد محاضرات وندوات في شتى المجالات المعرفية، خاصة تلك التي تناقش قضايا ذات ارتباط بالشأن السياسي العام، مثل مناقشة علاقة التصوف بالحداثة، أما فيما يخص الدفاع عن أطروحة المغرب في قضية الصحراء، فقد دأبت الطريقة البودشيشية على أن يكون موسمها السنوي محطة لاستعراض امتداداها الروحي في الأقاليم الجنوبية، عبر وفود مريديها القادمين من كل فج عميق، علاوة على عقدها دورة تكوينية لشبابها بمدينة كلميم صيف 2013 للغرض نفسه، ناهيك عن دعوتها في أكثر من مناسبة للمشاركة في مظاهرات احتجاجية ترعاها السلطة، من قبيل مظاهرتها ضد العدوان الإسرائيلي الأخير على غزة، ومظاهرتها إدانة للرسوم المسيئة للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم [30].

ولاغرو أن الزاوية من خلال هذه الأنشطة، تعمل على توسيع دائرة تأثيرها واجتذابها لمنتسبين جدد، من خلال التبشير بأفكارها وأطروحاتها البديلة، وهو الأمر الذي يشكل في جوهره فعلا سياسيا، وهذا إن دل إنما يدل على التحول التدريجي للزاوية نحو الممارسة السياسية بشكل غير مباشر، وبفضل الدعم المقدم من لدن السلطة المغربية حظيت "الطريقة القادرية البودشيشية" بسلطة معنوية وازنة، واستطاعت ربط علاقات وطيدة مع هيئات دبلوماسية لبلدان عظمى، مثل الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا، واستقطاب أتباع بالآلاف من داخل المغرب وخارجه[31].

2- **<u>الصوفية في إستراتيجية ضبط التوازنات الدينية واحتواء الإسلام السياسي</u>**

بعدما أجمعت القوى السياسية في المغرب -عقب الاستقلال-على أن الطرق الصوفية تشكل أحد أكبر المعرقلات لبناء المغرب الحديث، تكشّف من جديد للقوى المحددة للسياسات العمومية -مستهل الألفية الثالثة- أهمية الطرق الصوفية في تثبيت قواعد مغرب الحداثة وخلق أجواء تربو وتتجدر فيها قيم التسامح والتلاقح والتثاقف، وتصفو للحفاظ على الأمن والاستقرار بما يخدم التنمية والازدهار، فعودة الثقة في الفاعل الصوفي للعب أدوار أداتية تخدم توجهات الدولة السياسية وتذلل احتكار السلطتين الدينية والزمنية لأمير المؤمنين ليس مستحدثا، فالسلاطين الشرفاء دأبوا منذ عهد الدولة السعدية على توظيف رموز ومؤسسات تكرس مصدريتهم لكل السلط، وتجعل الشرعية مستمدة من ذاواتهم[32] بمنطق أصلهم الشريف المنحدر من عترة النبي صلى الله عليه وسلم. وعليه لم تفتأ السياسة العامة في المغرب تقوم على مسلمة مركزية السلطة، بمعنى أن الدين في خدمة النظام لاعتبارات تاريخية وسياسية، وهذا هو كنه ما يسمى بالإسلام الرسمي أو الإسلام العلماني، فالخطاب الملكي حول إعادة هيكلة الحقل الديني، اعتبر حمّال لمضامين سياسية واضحة، تفصح عن إعلان الملك تأميم المجال الديني من خلال احتكار الفتوى[33] – وهو قرار لم يسبق أن تخذه رسميا أي من الملوك الذين تعاقبوا على حكم المغرب –، وفي هذا الصدد يقول الملك:"... كلا، بل أقول بلسان شعبي العزيز إننا لن نقبل أبدا اتخاذ الإسلام مطية للزعامة باسم الدين أو القيام بأعمال إرهابية وتمزيق الوحدة المذهبية للأمة...، وباعتبار أمير المؤمنين مرجعية دينية وحيدة للأمة المغربية فلا مجال لوجود أحزاب أو جماعات تحتكر لنفسها التحدث باسم الإسلام أو الوصاية عليه، فالوظيفة الدينية هي من اختصاص الإمامة العظمى بمساعدة المجلس الأعلى ومجالس إقليمية للعلماء..."[34] كما صوغ هذا القرار بحجة فوضى الفتاوى الصادرة عن كثير من العلماء الجانحين عن نهج الدولة، وتورطهم في تفريخ أفكار متطرفة تشوش على الأمن الروحي والهوية الدينية المغربية، وتخلق مناخا يسوده الارتباك و التوتر والصدام، وهو ما استدعى ضبط الحقل الديني بجمع الصلاحيات الدينية في يد الملك وفق تدبير هرمي محكوم بيروقراطية صارمة.

وعلى هذا الأساس استدعيت الصوفية في البداية في مهمة دبلوماسية موازية ذات طابع روحي، لدعم تصور المغرب في قضية الصحراء، عبر الإسهام في تمتين العلاقات بين المملكة ودول إفريقيا الغربية وجنوب الصحراء، التي تربطها بالمغرب أواصر روحية تليدة، واستثمارها لخدمة توجهات النظام السياسية واستثماراته الاقتصادية، ففي الثاني من يونيو سنة 2007 مثلا عقد بالمغرب مؤتمر حضره ممثلون عن الطريقة التيجانية من أربعين دولة إفريقية، لتدارس سبل توسيع مجال طريقتهم في مجمل القارة الأفريقية وتعميق نشاطها في مختلف مرابعها، وفي الأخير أكد البيان الختامي للمؤتمر مباركة العاهل المغربي لمساعيهم الحميدة، متعهدا بتقديم يد العون في بث نهجهم القائم على نشر التربية الروحية وترسيخ قيم الإسلام المثلى[35]،كما استمر العاهل المغربي على نهج سلفه في الزج بالورقة الصوفية كلما طرأ خلاف مع جارته الجزائر، من قبيل تنصيبه لشيخ الطريقة التيجانية –الممتدة فروعها في كثير من الدولة الإفريقية–يوم السابع والعشرين من فبراير سنة 2009، كرد على التصريحات الجزائرية الرسمية المؤكدة على جزائرية الشيخ أحمد التيجاني[36] مؤسس الطريقة التيجانية[37].

وعلى إثر الهجمات التي منيت بها الولايات المتحدة الأمريكية في الحادي عشر من شتنبر سنة 2001، وانسجاما مع مشروعها الفكري الموجه للقضاء على الإسلام الجهادي وإقبار نشاطه العدائي[38]، تم توسيع مجال خدمة الزوايا في المغرب ومترستها في السياسة الدينية الجديدة كرأس حربة ضد الحركات الإسلامية (الجهادية والشيعية والرافضة لإمارة المؤمنين)، عبر تقديها في الإعلام وبعض المنابر الثقافية كصيغة للتدين المجتمعي المتوافق عليه، ومجنا ضد الأمراض الفكرية والسلوكية المتطرفة والعدائية، ونموذجا للتعايش والتفاعل إيجابا مع قيم الحداثة والعلمانية. ولإنجاح هذه الإستراتيجية الدينية الجديدة وأجرأة تصوراتها وحصد نتائجها المأمولة، جدّت الوزارة الوصية على تقوية الجبهة الصوفية بكفكفة شمل مؤسساتها وتيسير عملية إدماجها[39]، وإظهارها بمظهر المنقذ من براثن المخمصة الروحية والارتباك النفسي واختلال منظومة القيم، والشاهد في هذا الشأن "لقاءات سيدي شيكر" الوطنية التي أقيمت في نسختها الأولى تحت رعاية ملك المغرب مابين 10و12 من شتنبر سنة 2004، بحضور جمع غفير من مختلف بلدان العالم أشهرهم محمد هشام قباني–أقرب المقربين لشيخ الطريقة النقشبندية والشخصية الموثوق بها عند الإدارة الأمريكية– للتنسيق وجسر العلاقات بين المؤسسات الصوفية الناشطة في مجال نشر الفكر الصوفي وإحياء وظائف الزوايا الروحية والتربوية، ولتدارس إمكانية تأسيس قطب صوفي أو تجمع عالمي للمنتسبين للتصوف يكون مركزه المغرب[40].

وقد وجه العاهل المغربي بالمناسبة كلمة نوه فيها بالنهج الصوفي وغاياته النبيلة، ثم استطرد يعدد أهمية الصوفية المغربية في الدفاع عن ثوابت الأمة الدينية والوطنية قائلا: "فإنّ ثلاثة أمور جليلة جديرة بالإشارة في هذا المقام أولها: مُساندة الإمامة الشَّرعية في القيام بأعبائه، مع الحفاظ على الوحدة المذهبية المالكية والعقيدة الأشعرية، وثانيها: تحرير النفوس من حبِّ الرئاسة المغرضة وترويضها على الشُّكر لله ونبذ أنواع الأنانية والطُّغيان، وثالثها: تخريج ثُلَّةً من الرَّواد الذين لم تتناقض في أذهانهم النوازع الكونية مع التحلي بالروح الوطنية الخالصة"[41].

أما نسخته الثانية المنعقدة مابين 10و12 من يوليوز سنة 2009، فقد حج إليها المريدون من ثلاث وأربعين دولة بأعداد ناهزت الألف وخمسمائة مريد. ولم يفت عاهل البلاد توجيه رسالة بالمناسبة أمام الحضور، حدد فيها الأدوار التي يتوسم من الزوايا الاضطلاع بها وعلى رأسها الالتزام بمناهج الصفاء، والربء عن الإغراض والسفاسف الدنية، والسمو بأهلها عن كل ما لا يليق بهم، كما شددت الرسالة على ضرورة توحيد صفوف مختلف مكونات النسيج الصوفي بمختلف مشاربه واتجاهاته وتركيز عمله في خدمة الدين والوطن والتفاني في صيانتهما، فخدمة الدين لخصه الخطاب في التربية والتزكية وتهذيب النفوس والدفع بها إلى طلب السمو والاكتمال والتحلي بكل أشكال البر

وتكريس قيم التضامن والتسامح وإشاعتها بين الناس، في حين اختزلت خدمة الوطن في القيام بالواجب نحو الإمامة العظمى التي تمثلها إمارة المؤمنين، والحرص على خصوصيات المغرب الثقافية حتى لا تنقشع تحت تأثير كل المشوشات الدخيلة، والتصدي بالحكمة لكل مظاهر الغلو والفكر المتطرف[42].

ويفهم من خطابات هذا اللقاء سواء الملكية أو الصادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قوة الرهان المعقود على الفاعل الصوفي لتقوية الجبهة ضد الرافضين لإمارة المؤمنين والمعاكسين لحل الملك في قضية الصحراء وكل الخلايا المتطرفة، مقابل النجاح في إشاعة وبناء "إسلام لايت" –على حد تعبير وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة كنداليزا رايز – [43]صوفي المشرب متحضر الأدوات منفتح يتعامل مع الواقع السياسي بواقعية ويتبنى العمل التربوي المنظم. ولتيسير ذلك فتح في وجه هذا الفاعل كل الإمكانيات المتاحة بما فيها القنوات الثقافية والإعلامية إن السمعية أو البصرية لإحياء وتجدير التدين الصوفي في الأوساط المغربية وترويجه كتدين حداثي يقوي من حرارة الإيمان و يوسع من دائرة المباح.

وبناء على ذلك ركزت الدروس الافتتاحية الرمضانية التي ألقاها عرّاب التصوف بالمغرب ومنظر مشروعه السياسي السيد أحمد التوفيق، على أهمية القيم الصوفية ورصيدها الفكري في الاستقرار الروحي والانفلات من مأزق الحداثة وما بعد الحداثة، وهو الموضوع الذي حاولت جملة من الندوات والمؤتمرات مقاربته في غمرة مناقشتها للفكر الصوفي، إذ اعتبرت أن رواد التصوف من طينة ابن العربي و الرومي والحلاج ...حملوا أفكارا سبقت عصرهم وأجوبة تعرف راهنية لتساؤلات راهنة، من قبيل الندوة الدولية التي نظمتها وحدة فضاءات الفكر في الحضارة العربية الإسلامية، التابعة لشعبة الفلسفة كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، بتعاون مع مؤسسة "كونراد إيدناور" الألمانية أيام 24 و25 و26 أكتوبر2002، ومشاركة حوالي ثمانية وعشرين مفكرا وباحثا مختصا من مختلف جامعات ومعاهد أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية والدول العربية تحت عنوان "ابن عربي في أفق ما بعد الحداثة"[44].

خلاصات واستنتاجات

ظل الخيار الصوفي في المغرب، من بين الرهانات المعتمدة في ترسيخ مشروعية النظام ودعم توجهاته الرسمية، والانبراء للأفكار والممارسات التي من شأوها زعزعة استقرار المجتمع المغربي وتهديد ثوابته، وقد شكل تنامي نفوذ الحركات الإسلامية الآبقة أو الرافضة البخع لضوابط لعبة المحزن، (السلفية الجهادية، العدل والإحسان)، والموسعة لدائرة استقطابها لأتباع ومنخرطين من كل فئات المجتمع وطبقاته، قلقا للسلطة الحاكمة، خاصة حينما بدأت تفرض نفسها كقوة دينية وسياسية معتبرة، وتعرض مشروعا مجتمعيا بديلا /منقذا يتنافى تماما مع مشروع الدولة، وأمام هذا المستجد اهتدى النظام –لضبط الوضع والتحكم فيه– إلى إعادة بعث وإحياء دور الفاعل الصوفي واستثماره إيديولوجيا في المشهدين الديني والسياسي، مستغلة العملية الإرهابية الواقعة في ماي 2003 وما بعدها، لتقديمه نموذجا للّون الإسلامي المدافع عن الانفتاح، والمعادي للتزمت والتطرف والعصيان، والحامل لأفكار دينية مستنيرة تتناغم وقيم الحداثة والعولمة، هذا الضبط الدهي من لدن الفاعل الرسمي للخريطة الدينية والسياسية في المغرب، جعله من جديد يتحكم بزمام الأمور ويفشل المخططات المعادية لسياسته، ويجهض طموحات حركة عشرين فبراير ويخمد إشعاعها، فالتصويت بنعم على دستور 2001، وخروج بعض الزوايا وعلى رأسها الزاوية البودشيشية بعشرات الآلاف ردا على المظاهرات الرافضة لفحوى الدستور، اعتبرتها بعض المنابر الإعلامية والمراكز البحثية توفقا كبيرا للنظام في توظيف الطرقية وضرب معارضيها في الداخل. وقد تماهى هذا التوظيف مع توجهات القوى الغربية الكبرى التي تشجع هذا النوع من التدين لإنجاح تدابير علمنة الشعوب

الإسلامية، وترسيخ نموذجها الحضاري، وتذليل إنزال مشروعاتها الإستراتيجية الكبرى في المنطقة وعلى رأسها مشروع الشرق الأوسط الكبير.

الهوامش

[1]- ضريف محمد(1992). مؤسسة الزوايا بالمغرب، منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي. 34.
[2]- حجازي مصطفى(2001). التخلف الاجتماعي: مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، المركز العربي الثقافي. الطبعة 8. 143
[3]- ضريف محمد(1992). مرجع سبق ذكره. 127.
[4]- المرجع نفسه. 48.
[5] - Laroui A(1993,). Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain: 1830-1912 . Centre Culturel Arabe. Casablanca. 143.

[6]- مبروك محمد(2013). "الصوفية بين الاستقطاب السياسي والتوظيف الخارجي في العالم الإسلامي". مجلة البيان (313). يوليو – أغسطس. 43
[7]- تقريران لمؤسسة راند صدرا سنة 2004 تحت عنوان ":The Muslim world After 2001/11/9 "العالم الإسلامي بعد أحداث 11 شتنبر 09/11".وتقرير بعده في السنة نفسها تحت عنون " Civil Démocratique Islam ". الإسلام المدني الديمقراطي". وتقرير سنة 2007 بعنوان" Building Moderat Muslim Networks". بناء شبكات إسلامية معتدلة. ينظر إلى الموقع الالكتروني لمؤسسة راند
/http:// WWW.rand.org

[8]- عباس بوغانم (2009). التصوف بين حسابات الداخل ورهانات الخارج. جريدة التجديد. الفاتح من يوليوز. 3
[9]- علي أنزولا(2014). الصوفية ضد الإسلام السياسي لدى الأنظمة العربية. صحيفة العربي الجديد . الجمعة 10 اكتوبر. 1
[10]- فهم الصوفية واستشراف أثرها في السياسة الامريكية. أعد التقرير "توبياس هيلمستروف" وياسمين سينر" و"إيميت توهي"ترجمة مازن مطبقاني. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية. 15-18

[11]- فهدة آل سعود(2004). ماذا يحدث في مركز نيكسون. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية إدارة البحوث والدراسات- وحدة دراسات العالم الغربي، مارس. 18-20.

[12]- مازن السليمي(2004) .الصوفية السياسية، صحيفة عكاظ، العدد 632. 2.
[13]- مازن مطبقاني. مرجع سبق ذكره. 22
[14] --http://www.qudspress.com/data/aspx/d20/10420.aspx
[15]- world Report Us news and, p. 5 .2005/04/ 25(الطبعة الالكترونية)
[16] - Cheryl Benard and athers. The Muslim World After 9/11. Library of Congress Cataloging-in-Publication Data .465- 475.
[17]- المقدي محمد(2007). "نقض العرى...رؤية في البديل الغربي للتيار السلفي". مجلة البيان العدد 223. مارس. 85 .
[18] -http://www.qudspress.com/data/aspx/d20/10420.aspx
[19]- سهاد حجاج(2013). الإسلام في أمريكا. صحيفة البيان. 14 دجنبر. 3.
[20]- حلبي محمد(2005). إعلام لنصرة الصوفية. جريدة العرب اليوم الأردنية، 25 أبريل. 4.
[21]- مطبقاني مازن. مرجع سبق ذكره. 22.
[22]- مرتضى كريم(2013). إسلام على المقاس. جريدة الزمان ـ العدد 1633. 12 أكتوبر. 3.
[23]- شقير محمد(2009). منطلقات السياسة الدينية الجديدة. جريدة المساء. 24 شتنبر. 4.
[24]- سحموني محمد(2002). الإسلام السياسي في المغرب. جريدة الصباح. 26 شتنبر. 3
[25]- الخلفي مصطفى(2006). التقرير السنوي حول الحالة الدينية في المغرب. المركز المغربي للدراسات والأبحاث. 167-168.
[26]- سليم حميمنات(2006). سيرة الحركات الإسلامية في 2005. كراسات إستراتيجية، منشورات وجهة نظر. مطبعة النجاح الجديدة. 136.
[27]- نداء الشيخ سيدي حمزة بن العباس. الموقع الالكتروني:www.tariqaa.org
[28]- محمد شقير(2009). المحددات الإستراتيجية للسياسة الدينية الجديدة. حريدة الخبر. العدد 17. 2.
[29]- عبد المجيد الجهاد(2013). "التصوف بين التأنيس والتسييس". مجلة أمل، العدد 4. 76.
[30] -http://www.rnw.nl/hunaamsterdam/almagrib/11030901

[31]- مجلة المجتمع الكويتي(2012). "الصوفية أداة السلطة في مواجهة خصومها". عدد 13 أكتوبر. 30.
[32]- ضريف محمد(. مرجع سبق ذكره. 45.
[33]- الشرقاوي عمر(2010). "الملك والدين في عقلنة الحياة الدينية". المجلة المغربية للسياسات العمومية. العدد 5. 107.
[34]- بحاك حميد(2009). الإسلاميون المغاربة بين الدعوة والدولة: حركة التوحيد والإصلاح نموذجا. منشورات دفاتر سياسية. 29.
[35]- جريدة الأحداث المغربية(2007). أي دور للدبلوماسية الروحية إزاء العلاقات مع إفريقيا.1 يوليوز . 3.
[36]- تجمع المصادر على أن الشيخ أحمد بن محمد التيجاني ازداد في العام الهجري 1150 [1737 م] بقرية عين ماضي على تخوم الصحراء الجزائرية.

[37]- جريدة المساء(2005)، سيدي أحمد التيجاني..ولي تتنازع بركته الأهواء السياسية. العدد 2730، 10 يونيو.3.
[38]- تقرير الحالة الدينية في المغرب(2007-2008)، المركز المغربي للدراسات والأبحاث المعاصرة. الرباط. 2009. 162.
[39]- الشرقاوي عمر(2010). مرجع سبق ذكره. 123 .
[40]- عزيز شهبون(2004). لقاء سيدي شيكر ملتقى عالمي يسمو بالروحانيات، الأحداث المغربية، 10 شتنبر.
[41]- الشرقاوي عمر(2010). 105.
[42] - http://maroc.ma/ar/
[43]- حبيب كمال(2006). تحولات الحركة الإسلامية والإستراتيجية الأمريكية. دار مصر المحروسة. 214.
[44]- سعيدة شريف(2002). جريدة الشرق الأوسط. العدد8734. الأحد 27 أكتوبر. 4